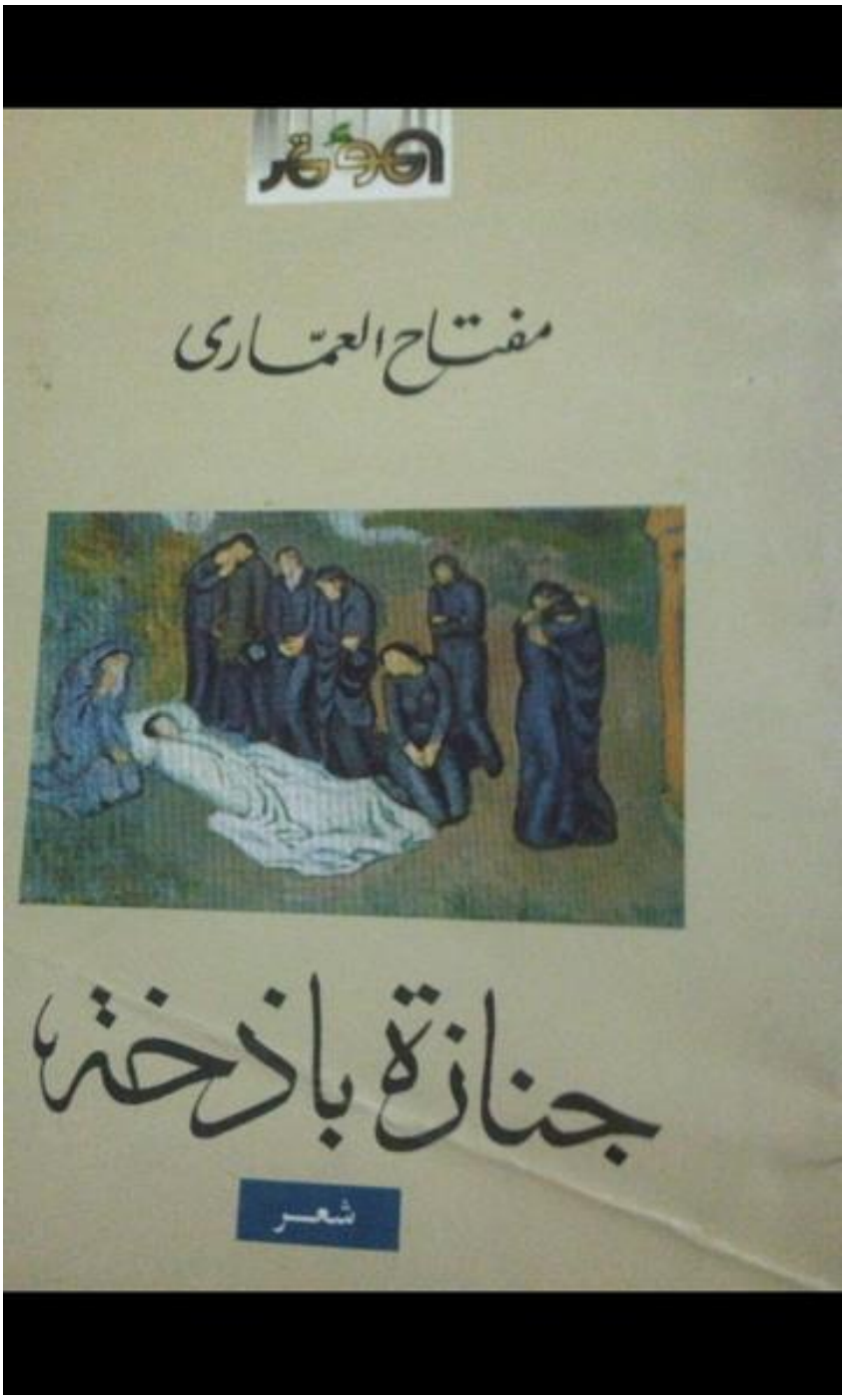
مفتاح العمّاري
جنازة باذخة
شعر

مفتاح العمّاري

جنازة باذخة

شعر

- جنازة باذخة
- المؤلف: مفتاح العمّاري
- الطبعة الأولى. 3000 نسخة
- منشورات مجلة المؤتمر
- رقم الإيداع 14282 / 2002

تصميم الغلاف: حامد العويضي

لوحة الغلاف: تفصيل من لوحة "استحضار"

للفنان بابلو بيكاسو

عناوين خجولة _____

الشتاء يحمل معاطفه ويغادر بلا جدوى

أصابعك باردة وزرقاء

عيناك تخبئان الوجع الذي يمزّق أحشاء القصيدة.

وتقترحان ألعابا لِأحْمد.

كأن الشرفة لم تعد صالحة لقهوتنا

وعصافير المطر.

علب الدواء وحدها تنمو حول سريرك

بأسماء أليفة؛

فصرنا نحفظ مواعيد ال One alba

وcalcium carbonat

الشتاءُ يغادر بلا جدوى،

وأقمارُ ضحكتكِ تذبل.

أنتِ الخفة التي تحمل ثقلنا.

يداكِ ربيعُ الضيف.
وقلبكِ وطنُ الشاعر ورحلته الآمنة.
كنتِ قبل أن يجفّ ضوء اللغات
تغيرين وجهة الزوابع
وتبدّلين صوت المساء الذي
يزحف على حقولنا البريئة
بكائنات ثرثارة وزوّار تائهين
تحملين حقائب الوجد
الى مدن لم توجد
وتقترحين لكل منعطف بريد مطر
وشجرة عاشقة.

أحيانا تجلسين وحيدة
تحت شجرة الزيتون
التي نسميها ربّة ظلّ
وتنتظرين عودة الصغار

وهم يحملون الحدائق
في حقائبهم المدرسية.

إيه يا زوجتي،
يا بلادي الطيبة،
التي وجهها فاكهة طرية؛
تستدرج بلاغةَ الموسيقى.
كأن الخرائط
لم تعد تسع ايواء المعنى
تقف خجولة أمام رغبتكِ
وهي تعود خائبة بلا مفاتيح
أو عناوين سخية لزراعة الضحك.
لكن لا باس
طالما الكلمة الوحيدة
التي يبحث عنها الأنبياء

تستيقظ هنا

في هذه القرية

التي تسمّى الرملة مجازا.

في هذا المنزل الريفي الخجول

في هذه الغرفة الصغيرة

ثمة سماء تنمو.

<.>

_____ جنازة باذخة

حكاية مَنْ هذه السادرة في نهبها؛

القوافي دوائرُ ياقوت

وهي الجسدْ.

فكيف أزيحُ الغبارَ

وأرفو اليقينَ شقيقَ الكذبْ

وصخبكَ يحجبُ الشمسَ

أيها المُتنبِّي

كأنك الأبدْ

وما تبقّى زبدْ.

***

حكايةُ مَنْ هذه التائهةُ موشومة بالأجراس
تخسرُ السفرَ والمواعيد.
والقمرُ الوحيدُ يؤبّدُ النظرَ
بقبضةٍ مفتوحةٍ على غدر الأمّهات
واثقًا أن البلاغة غربالُ الريح.
***

إذن سأنتظرُ القطارَ الكهل
وهو يطحن بصفيره زجاجَ العابنا.
والكائناتُ البريئةُ تهتفُ عبر نوافذ
راكضة، ترشقُ المسارب بالأحلام.
وان يكن وقفي بلا ظل وماء
ولا شيء الآن باسمي يسمّى
سيظل كل ذئب تاه في لغتي
كنزَ عُواء.
***

لست شيئًا؛
غير أني أرى الرملَ يعتلي ظهر المشيئة
ويغتصب الجهات.
وأرى الشوارع
حفلة صيد.
أنا العديد في جسدي.
ترتعد عناصرُ الجارات تحت أغطيتي
ويقرع الشتاء أبوابي
ولا أحد يأتي.
وأنا البعيد في لغتي
حين بدأت الحرب أخطأتني حظوظُ الصبايا.
يقينا أني جربت الحمام
وطيّرت الرسائل والحدائق والقبل
لكنهم صنعوا الأسوار
وجلبوا البنادق والنياشين

وصور النساء الغمّازات.
ونحن الصغار لم نشتر بعد
لوازمَ الرحيل إلى البلد؛
لكي نطوي الرمل الكفيف خلفنا.
***

حكاية من هذه الضالة
تبحث عن صبي ضيعته الأمهات
جميعهنّ حفرن وشمه
أمّهاتٌ من سلالة القطط
تجمعهنّ فمٌ باذخةٌ بالمواء
أمهات بلا أحد؛
سوى أن الحروب الصغيرة
تقود الخيال إلى مهب جامح،
ولا أحد يأتي.
***

ستعلو فوق صوتي قال الغراب:

أبواقُ النفير

ويحبسني لوني في العلو.

بعيدًا عن أبي أمحو جلالةَ الألم

وأضع فراخي.

أنا الغرابُ المستجير.

تقف الجيوش بأعلامها الدامية تحت أجنحتي

ويحتدم السعير

محتفلا بسمائي والقوانين التي يسهل خرقها

أحرس الولائم بأقفال لا يعبرها الضوء.

متأهبا لإيقاظ المعادن

أخطفُ النساءَ مِن معاقل النثر،

وأطير.

***

لماذا أيها الحفاة تتبعون سنّة الوهم؟
تحزمون الصحراء الشائخة تحت ظلالكم الجريحة
صوب المحطات البعيدة،
وتنتظرون هبة الحواس
وهي تصعد الوسائد
التي يفلت ريشُ أحلامها عبر الشرفات
ليهب الحبّ للتائهين.
والنوافيرُ قبعاتٌ تهطلُ بالألوان،
والعشاق دوائر يسيجون مهابةَ النظر
ويحيطون اللغات؛
بصمت اللغات.
***

حكاية مَنْ هذه الدائخة بتواريخها الخاسرة.
والجنديُّ التائهُ، تائهًا يقطّر بلاغته النازفة:
- أعطوني اللغةَ السمراءَ الهابطة بالغنائم
يحرسها الإعجازُ الأصيل،
أعطوني صفةَ الضوء وكلام الرسل
لأحلّق بفخامة
غير ملتفت لقميصي
وقد فخخته النجوم.
سأعتقُ السفنَ وأخلطُ الأسماء والعناوين؛
ليتوه الخلق في معرفة المفاتيح والساعات
وأشكال الكواكب والخيول.
دعوني أسمّي الوطن الثقيل طفلا قتيلا
يجاور التيه، واسمّي الأحلام بنوافذها
المأهولة بالغرقى.

أعطوني الذئبة شقيقة اللعب

معلّمتي الضحك ونحن نعبر الغايات ملتبسة

بظلال الأمهات والأبناء

الملدوغين بهزائم النظر

واعدين المستحيل بجنازة باذخة

أعطوني الأميرة حامية المباهج

التي قصائدي حصانها إلى

طروادة الروح

وبلاغة الجسد

وان يكن وقفي بلا ظل وماء

ولا شيء الآن باسمي يسمّى

سيظلّ كلّ ذئب تاه في لغتي

كنزَ عُواء.

<.>

مشيئةُ الوعل

منذ زمن قديم

عندما لم يكن هناك شيء بعد

أسمه وطن

كنتِ المرأة الوحيدة

التي تهب الشاعر

الكلمة النادرة

وتمنحه الحجر الغريب

الذي توّه الفلاسفة؛

والقمر الجدير بالأعياد والسفر.

كنتِ المرأة الوحيدة التي يُقال:

رحلة العاشق في كهولته؛

فأعطيتُ أجنحتكِ بلاغةَ العلو

والحلم السخي الذي يوصف:

حظ القبائل الثرية وغنائم الصيد
وهبة اللون الضائع
ومشيئة الوعل.

لكن نظرتك قد أنكرت طقسها
ولم تعد تحفل
بسمو الطائر.
وكل شيء فيكِ صار يبدّد نفسه
حتى أصابعك الطيبة
التي كانت منذ قليل تحرّك الضوء والألوان
وتعقد العطر والعسل
صارت شقيقة حجر
ووجهك الطفل تغيّر ماؤه؛

ولم يعد بيننا رسائل أو مواعيد

أو مطر لكي نأخذ المدينة في حقائبنا

ونطرد الكبار من ألعابنا

هكذا مضى كل شيء

دونما حكايات خجولة

كأننا خسرنا بعضنا

ولم يعد بيننا ما ينتظر.

<.>

رسائل لا تصل

في هذا الظلام

الذي يطرد النساء والعصافير.

والأصدقاءُ ضفافٌ تتأى؛

تذكرتكِ أيتها المهاجرة بنوافذها

وألوانها الصاخبة.

الكلماتُ تنسحب إلى خنادق النثر،

والمشاعلُ أقواس تهطل

بالكائنات النشيطة،

من حشرات الصيف،

وأصابعي رسائل لا تصل.

***

ها أنّي أدفن رفات اللغة العاطلة

وأقتفي أجراسك الذكية

وهي تتكسر في عذوبة السفر

لتأخذ الحدائق والشوارع والظلال

كأن الطريق إليك معجزة الأنبياء

أنت التي وجهها حلم يتناسل

وعناوينها هاربة بأشرعة تلبس الأفق

وشعرها يستعير هيئة مطر بعيد

لذا يا أمي الكبيرة

ساقرا الآيات الحارسة

وأجمع زيتون الموسم

وما يكفي من اللجوء الى بيتي

ومن الهدوء ما يصلح لتكفين صخب الموتى

وأكوّم الأيام برتابتها الجارحة،

وأضع السماء

فوق صهيل خيولها الطائرة

سأروض المخلوقات الخمسة

داخل خرم الابرة

حيث تمرّ قوافل الصوف

وقطعان الرعاة التائهين فعبر ثقب صغير كهذا

أمرّر الشمس

نحو صباحات لا ترى.

<.>

جزيرة ضائعة _____

المرأة الكبيرة

عادت من بعيد

وجهها الذي يقال

ربيع طازج

بدا تائها بلا نجوم

رأيناها وهي تقبل مثل جزيرة ضائعة

وسمعنا استغاثتها الدامية

تمزّق الحواس

عند الصباح

وجدنا مدينة أخرى

نصفها غابة

ونصفها الآخر لا يرى

عادت بصنف جديد من الموسيقى

والسجائر والرؤى

فلم نعرف صوتها المحطّم

وعطرها الذي كان متوحشا

وشعرها الملون بالمرافئ الغريبة

فوقفنا مرتبكين نتنفّس خوفنا

لا ندري كيف ندخل الشوارع

التي تقلّنا بلا رأفة

الى ضفاف عجيبة

لأن المرأة الكبير

أطلقت صوب فخاخنا

اسراب طيورها الدائخة

طيورها التي يقال

رغبة السفر

لكن لا ماء يبلل صفة الرمل

التي كما نرى

صفة امرأة لا تكتمل

صفة الليل

وبهاء القمر

ودم الحكايات الغريبة.

حطابُ الأرضِ الوعرة

لأنّي من نسغ الأرض الوعرة
أبي حطاب أحلام
وامّي نسّاجة وعد
وولادة مغزى
لن انوي الهجرة
الى لغة أخرى
لأطير مثل رماد مخدوع
تتخاطفه طواحينُ هواء
فوق بروج من دخان
مغمورا بمباهج وهم
وثرثرة نزوات نزقة
ومهما تشرّدت لغتي
لن تأفل أغنيتي،

عن سماء منازلنا
ومزارع الفتنا
ومهما أخطأت امّي
لن أنشر غسيل أيامي
على حبل جارتنا
وستظلّ أمّي رغم جراحي النازفة
تتربّع على عرش مخيلتي
كما لو أنّها ملكة.

ورغم لدغة لزمان الوضيع
سأظلّ كل صباح
أشرب من قهوتها المرة.

ومهما يكن
سأبقى هنا.

فوق هذه الأرض الوعرة
أضرب فأسي قويا
أقتلع الأشعار من عروق حجارتها
أمنحها من روحي وهج الروح
ومن قلبي
أهبها أجنحة الجدوى

هنا سأعتق خمرة حدسي
وأشرب كأسي
فيسكر قمري
ويرقص ظلّ جلاسي.

وحين تسهو أذن الليل
أسبر غور جدراني
وأغافل غفوة حراسي
وأدق أوتادي عميقا
في كبد المعنى
فتهتزّ عروش الكواكب
وتسقط قبعات النجوم
وتطلق الشمس في حقول قصائدي
قطعان خيولها المرحة.

ولأنّي جندي

تحمله خفّة عيون

كحلتها التجارب بلون مفازات عطشى

بلون ساعات رمل

مكسورة بهزائم شتّى

بلون مطر من غربان

وأصداء جيف تأكلها هبة السهو

بلون هتاف جماعي لغابات القتلة

مهما يكن

لن اهجر عشّ أطفالي

وخلوة الظلّ الفقير

وكرمة الندى.

سأبقى هنا

حدّ الوارفة مثل نافورة من هداهد حكمة

تصدح بنداء التمر

توأم النحاس الأصيل

أظفر المديح للأنثى

أميرة الشجر

محرّضا معرفتي أن تأخذ عراجين الكشف

وتكنس أوساخ الحواة

وشباك العنكبوت

لتتعرّى العورات

وتسقط اوراق التوت

أواه ما أجمل هذا الموت

حين تكون القبضة ظافرة بالطير

وعصير الأسرار.

وتصبح أروقة الشعر

ثرية بالرؤى

ومناجم الملح والآبار

حين تخمد في عجينة الطين

جمرة يدي

وأموت هنا

وتبقى كأسي مترعة بالنشيد

وكلماتي أسرار غيوم

ترعى فوق الأرض الوعرة.

<.>

مسافة العطر _____

* كأسٌ لكي نَتّقي البياضَ الغبيّ
كأسٌ، والشفاهُ معاقل صيد
هي حمالة أختام ومجاز ورؤى
بخارها نعيمُ الناسك
وقبلتها مسافة التائهين.
***

* كأس لكي نتقي البياض الغبي.
كأس للفتى الذي يقترف سماء الغرف.
وللكهل البهيّ صديق المنجنيق.
وكأسٌ للجندي،
الذي عاد من بلاد النهب والغزوات
كأس نعلمها الطواف بين اللغات
أصابعنا محطاتها الساهرة.

وللشيخ صاحب المسارب التي تستدرج
الخائبين؛
كأسٌ، والشفاهُ معاقلُ صيد.
هكذا:
للأمهات نطيّر النجوم
ونسرد جهاتنا الضائعة.
***

*كأسٌ تدورُ بيننا
كوكبُ خيالٍ نحمّلها القصائد
والأنهار والمدن؛
ونهبها ثلجًا إذا شئنا.
وإذا تهنا يدلنا الساقي علينا
بدورة أخرى.

وأخرى تجاور التيه

لكي تتقي البياض الغبي

* فأقترب أيها الرائي

وخد خيطا من الماء

وخيطا من قلبك الدامي

فهي قمر سقطت فضته عليك.

خدها أيها الرائي

وأطلق أسماءنا في زرقة الليل

حرة مثل وحوش تقتحم بساتين خالقها؛

خذها،

فأنتَ نبيّ.

<.>

_____ نام الشاعر هنا

مختلف أنت أيها النظيف
الذي عيناه خجل مقذوف في سماء القرى
المجالد العفيف
الذي يحزم أوراق شعره قبل حقيبته
مختلف أنت حتى في رحيلك
أيها الرائي
وحدك تباغت الموت في عقر داره
مهملا السفر الى كاركاس
لتفتح ممرات أخرى للسرّ
وتخصب قامة العلوّ
تاركا القصيدة التي تختزل الحياة
في كلمة واحدة.

أي عنف هذا الذي تصنعه القصيدة
لكي يقترح الشاعر قبره وطنا أخيرا
وبهدوء غامض لا يرى
يكشف البرزخ الذي حيّر الفلاسفة

وتوّه الشعراء

ثم وحيدا

ينتخب الموت الذي يشاء

أخيرا يا أمّه

نام الشاعر هنا

وحيدا في صخب الصيف

والشمس تدمي

على سهوب (الرجبان) *

بهدوء لا يرى

نام الشاعر في حضن قصيدته

ففقد النمل صلابة حكمته

والظلّ بكى

مات الصوفيّ

العاشق الرائي

والكهل المشّاء

الذي يطوي المدن في دفاتره

ويغيّر الأسماء

لكنّه ماذا رأى

حتى منح للموت صفة الشعر

وضوّع القبر بمسك براءته

ووهب لمهابة نومه

كل هذا البهاء.

---

* (الرجبان) من بلدات الجبل الغربي في ليبيا.

_____ وصيّة

مشغول بك يا طرابلس

أعطيك الكلمة الفتية

التي تتمزق وتنحرف عن مدارات المعاجم

التي عين الشك

وفم شجرة تقطع

وقبضة العاصفة.

**

مشغول بك

أترك لك اللمعان قويا كالصراخ

بين صمت الصحراء الأبيض.

الأبيض الكثيف.

والماء عرشك الدائم

والكتاب سيف.

أترك القصيدة مأهولة بك

بأحلامك وهي تنمو بصلابة الحليب

بأصابعك: نساجة ألفة

وخزافة متع

**

لك يا هبة الله

أضيف فمي حارا

وغائبا أضيف ملحا للشوارع

وأعطيك الملامح السخية التي يرسمها طفل

ظله ماء يطوق نظر المسافات

ويمشي بين البساتين خجولا

**

مشغول بك

أترك خرائط رئتي

وشبابيك هذا الصهيل الأخير

أترك أطفالي

الذين ولدوا على بلاطك البارد أمانة في عنقك

أترك أصدقائي. يمارسون الضلالة بين

الكتب.

اترك القمر يدمي

بالحكايات

وأذهب.

_____ ليلة القدر

في ليلة كهذه

مقيمة أنت بلا زمن

ما من أحد يجرؤ على ايقاظك

وحيدة ترشقين السماء

بالأمنيات الجارحة

وتصرخين: خذ صدري أيها الشاعر

في ليلة كهذه

وحيدة تهطل نجومك

مسارب كحل

تنحدر على كتف عاشق غامض

يكدس في حقولك نساء أخريات

أقل منك جمالا

وأصغر من أطفالك الأنبياء

في ليلة كهذه

يبعث الخيال لأجلك

ولأجلك يستيقظ الطائر الكهل

من عش القصيدة.

ويهبك رئة أخرى

ولأجلك يبتكر الأرض الجديدة

والمطر والخيول.

_____ الرجال السود

الرجال السود

يصفرون أثناء العمل

ويغنون أحيانا في الليل

تحت الضوء الملوث

بدخان السجائر

والحشرات الطائرة

عيونهم حمراء وجريئة

ونحن الصغار

آذننا قبل النوم

تحدث ضجة قرب الباب

وخلف النوافذ المظلمة

حيث تصعد الأحذية القاسية

وتعوي أغصان الزيتون

وينهمر المطر

وشيء ما يسقط قريبا

قالت أمي

التي لم تكن أرملة بعد

لكنها كانت وحيدة

دائما تترقب صيفا مجهولا

كأنها محطة ضائعة

والرجال السود

يشربون الشاي اثنا العمل

أصابعهم القاسية داخل عجينة الاسمنت

يتحركون مثل فكرة غامضة

ونحن لا نفهم حين نمر عبر الفناء الممزق

تطاردنا أصواتهم حارة وقوية

كأنها هبوب الغبار

تحفر آذننا مثل نقار الخشب

وأختنا الكبيرة فقدت نصف كنوزها

حين اختفت وجوههم

عبر أشجار شائكة

وبلدان مرة الطعم

ورغم ذلك

لا شيء يحدث بعد النوم

سوى الرجال السود

الذين تركوا على واجهة منزلنا الريفي

رسما لا يمحى

لجسد نحيف

يرقص كنملة مرحة

أحيانا

ويغني في الليل

مثل ميت قديم.

_____ الميراث

لماذا أيها الميت

أعطيتني الأرملة الخؤون

مرضعة الفواحش وراعية النزوات

أعطيتني الشقيقة الخنساء

مربّية الثأر، النائحة في مضارب البدو

أعطيتني التوأم الذي خطفته تجارة الكتّان وتماثيل

البنات الثرثارات

أعطيتني خزائن العثّ وجرار العطن

أعطيتني الريح بلا أشجار أو نوافذ

والسماء بلا وطن

وذهبت مبكّرا أيها الباسل

غافلا عن صرير الخيانات

ورائحة الثعالب وصمت النياشين

أعطيتني عائلة من وحل وقبيلة من كرناف

أعطيتني مسارب السياط المسعورة فوق جلدي

وتركت خيالي النازف وحيدا يدمي

أعطيتني اللسان المعتقل بفصاحة العيّ وتأتأة الغرقى

كأنني من هدر اللحظة الفاسقة

ونطفة الخلاعة رهينة السرّ

وأن فيضي هوس الصعاليك ولوثة العيارين

أعطيتني اسمال العسس وأحذية القتلة

ودشنتني المجاز للمتاهات

أنا الناحل من قسوة الخبز ولغة الزمهرير.

أعطيتني كنيتك التي لا تزن رغيفا

وتركت ضجيجك يثقل الأذن

ويمزّق الستائر

تركت كلابك النزقة

تعبث بالكتب والشباشب والنجوم

وتمشّط شَعر الغوايات

فكيف سأنام

وأنت لم تمنحني عشّا آمنا

أو لحافا أو حقيبة

ولم يبق منك أيّها الغابر

الاّ خلّب الصخب

وأصداء حروب العشائر

فها هي نجومك الجريحة

ضالة بين القرى

مثل ذنوب لا تغتفر

أعطيتني مناجم الجهل

وأوصاف الخطيئة

أعطيتني زئير السّبع

وقامة الجندب

أعطيتني نسب الشياطين

وسلالة النّار

أعطيتني ضراوة البؤس

وفخامة الأسى

أعطيتني ثروة الجعل

وميراث العقارب

وتركت السّماء قاحلة

بلا عناوين واضحة ومنارات

تركت الدروب في عيوننا المبللة بالهوان
عمياء بلا ظلال أو حدائق
فأين هم صحبك
الذين قاسمتهم الكأس والليل
وأقمت الولائم والمسرّات.
أعطيتني قرحة القمر
وشيخوخته المبكّرة
أعطيتني ثراء الأسرى
وأحلام المساجين
أعطيتني وحشة الروح
وفراغ البدن

أعطيتني بلاغة العطش
وإعجاز المنافي
أعطيتني مدافن التّوق
وأكفان المباهج والمرّات
أعطيتني مآثر الطحلب

وعبقرية العطب
فأين اختفى أشقاؤك الذين وهبتهم الأرض
والفضة ونحرت الذبائح
أين هم السادة بعد موتك، الذين
روّضت لهم الخيل وأطعمت الجراء
وجلبت الكمأة وزيت الجبل
أعطيتني اللعنات وقذائف البصاق
أعطيتني يقين التشرّد وهياج الزّوابع
وورثني أطلال الخيبة وعتبات البكاء
ورثّني الخفّة التي أهملتها نباهة النمل
وتركتني يتيما بين المخالب
يتيما أهشّ الذباب عن مخيلتي
لا بيت لي أو طريق أو حبيبة
شريدا في كنف العراء
ومشيئة الصدف.

أعطيتني القواقع الباردة

والنساء الرماد

وسلمتني لبراري العوسج

ورحلة الحفاة

لغة هامدة تنهشها البراثن.

وغمرتني برعبك أيها السخيّ

برعبك عقلت كائناتي

وجعلتني وقودا لحروبك

وملاعب لعصيّك الهائجة.

ذهبت يا سيدي

ولم تترك لي اسما واحدا أستغيث به

أو كلمة أتشبّث بثيابها.

هكذا قتلتني أيها الميت.

* كتبت قصائد هذه المجموعة _ 1999 – 2001

الفهرس

- عناوين خجولة
- جنازة باذخة
- مشيئة الوعل
- رسائل لا تصل
- جزيرة ضائعة
- حطاب الأرض الوعرة
- مسافة العطر
- نام الشاعر هنا
- وصية
- ليلة القدر
- الرجال السود
- الميراث

* مجموعات شعرية صدرت للشاعر:

1. قيامة الرمل.
2. رجل بأسره يمشي وحيدا.
3. رحلة الشنفرى.
4. ديك الجنّ الطرابلسي.